شخصية العدد

الأستاذ محمد السعيد مولاي

مدير المدرسة الوطنية العليا للرياضيات (سابقا)

ولد محمد السعيد مولاي في الثاني من ديسمبر عام 1948 في بلدية الهاشمية بولاية بويرة (الجزائر). وقد ترعرع في مسقط رأسه بعد استشهاد والده خلال ثورة التحرير، ثم واصل دراسته الثانوية في العاصمة (ثانوية عمارة رشيد، ابن عكنون). وبعد حصوله على البكالوريا عام 1968 انتقل إلى كلية العلوم بجامعة الجزائر (حاليا: الجزائر 1، بن يوسف بن خدة) فنال شهادة الليسانس في الرياضيات عام 1971، تلاها دبلوم الرياضيات المعمقة عام 1973. وعلى إثر ذلك تحصل على منحة دراسية لإعداد شهادة الدكتوراه في جامعة نيس Nice الفرنسية فنالها عام 1976، وعاد على إثرها إلى الجزائر للعمل كمدرّس في جامعة العلوم والتكنولوجيا هواري بومدين (الجزائر العاصمة). وظل كذلك حتى عام 1985.

وفي تلك السنة ابتعثته جامعته لاستكمال إعداد دكتوراه الدولة في جامعة نانسي Nancy (فرنسا) حيث أحرز على هذه الشهادة عام 1988. وعاد بعد ذلك إلى جامعة العلوم والتكنولوجيا وظل يحاضر فيها حتى عام 2002، وقد فضّل خلال تلك السنة العمل في المملكة العربية السعودية، فالتحق بجامعة أبها وظل يحاضر فيها حتى عام 2008. وعاد مرة أخرى إلى جامعة العلوم والتكنولوجيا بالجزائر حتى عام 2022، وهو العام الذي أحيل فيه على التقاعد.

وخلال المشوار المهني الطويل، كان الأستاذ محمد السعيد مولاي على قدم وساق في جميع النشاطات المطلوبة من الأستاذ الجامعي، منها التدريس والمشاركة في الملتقيات العلمية الأكاديمية، ونشر البحوث في المجلات العالمية، والإشراف على عشرات رسائل الماجستير والدكتوراه في الرياضيات؛ وكذا نشر الثقافة العلمية والعامة ذات الطابع الوطني من خلال إلقاء المحاضرات العامة والمشاركة في الملتقيات الوطنية التي كانت تستضيفه. فحركته في كل

هذه النشـاطات لا تهدأ مهما كانت ظروفه الصحية أو العائلية، والله يعلم كمّ مرّ الأسـتاذ مولاي بمراحل صـعبة لعل المقام لا يسمح بالتعرض إليها.

كما تولّى الأسـتاذ مولاي عدة مناصـب إدارية في إطار التعليم، منها إدارة معهد الرياضـيات في جامعة العلوم والتكنولوجيا والمدرسـة الوطنية العليا للرياضيات، وهو أول من وقع على عاتقه إعداد مشـروعها ومناهجها وتسـيير إدارتها. وهذا فضلا عن ترأسه لعديد المشاريع البحثية في مجال الرياضيات طيلة حياته المهنية.

إن أجوبة الأسـتاذ محمد السـعيد مولاي على أسـئلة المجلة (أدناه) كفيلة بتوضـيح الكثير من محطات حياته منذ طفولته إلى الآن. ولذا نترك له الكلمة دون إضافات.

والد محمد السعيد مولاي، وهو الإمام شهيد ثورة التحرير عمر بن محمد السعيد

10 أسئلة يجيب عنها الأستاذ محمد السعيد مولاي

مدير المدرسة الوطنية العليا للرياضيات (سابقا)

السؤال 1. لنبدأ من الطفولة، قبل الاستقلال، كيف كانت... حدثنا عنها بإسهاب؟

محمد السعيد مولاي: شاء الله تعالى أن أرى نور الوجود في الأواخر من سنة 1948 في ظروف كانت فيها البلاد تئن تحت نير الاستدمار وجور الاستعباد، وفي منطقة جبلية حبا الله أهلها بالانتشار على ضفاف "وادي غماري"، وحول عيون انفجرت بمياه عذبة مثل عين حازم وغيرها، ومياه أخرى معدنية ساخنة مثل حمام كسانة، وهي تابعة لبلدية الهاشمية، نسبة إلى الشهيد الهاشمي خريج المدرسة البادیسية.

ولدتُ في أسرة محافظة، تعود جذورها إلى أشراف آل البيت، وكثيرا ما يقال عنها إنها تفرّعت عن الفاتحين انطلاقا من "الساقية الحمراء ووادي الذهب" جنوب الشمال الإفريقي، فاستقر بعضهم في صحراء الجزائر، وآخرون بين وسط الجزائر (صور الغزلان، عين حازم) وشرق الجزائر (القبائل الصغرى والكبرى). وتقع هذه المنطقة من الجانب الجنوبي الغربي على امتداد تضاريس قادمة من ضواحي صور الغزلان وبرج خريس. كما تطل من الجانب الشمالي الشرقي على بساط من سهول "بلاد حمزة"، تلك المنطقة التاريخية المترامية الأطراف بين أراضي بني سليمان، فعين بسام إلى مقر الولاية، وهي مدينة البويرة حيث يتربع على مشارفها البرج الذي شيده "حمزة " ابن سليمان شقيق أول الأدارسة.

محمد السعيد مولاي، طفلا

وكثير من الأسماء المنتشرة في المنطقة تحمل في طياتها أنباء من سبقوا إليها وعمروها، وتحيط من استقرأها بذكريات عن الفاتحين والقرى الحجازية التي غادروها، على غرار مدينة البويرة التي تحدثنا بما جرى لتوأمها في المدينة المنورة والتي قال عنها شاعر رسول الله حسان بن ثابت: "حريق بالبويرة مستطير".

درســتُ باكرا في الكتاتيب التي أنشــأها والدي فحفظت جزءا من كتاب الله على يد عمي أبي الحنفية إلى أن دمر الاحتلال الفرنسي المنطقة برمتها، وقام بتهجير أهاليها وحشرها في مجمع "البراكة" (الهاشمية حاليا). وعلى إثر ذلك استشهد الوالد مع رفقاء له رحمهم الله جميعا سنة 1957. فانتقلت بعدها مع والدتي وإخوتي إلى عين بسام حيث كان المأوى والاستقرار عند عمايا القريشي والمحفوظ، وهما من خريجي معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس ومن الأوائل الذين شــرعوا في فتح مدارس على نمط المعهد القســنطيني في البويرة، ثم في عين بســام. فالتحقت بالمدرسة التي كانا يشرفان عليها بعين بسام ودرست فيها مبادئ من علوم شتى بالإضافة إلى علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

"فكانت الفرحة فرحتين: فرحة الفوز في الامتحانات الثلاثة وأخرى أكبر...استقلال الجزائر."

وقد تم تسجيلي في المدرسة الابتدائية (الفرنسية) سنة 1958، إذ منّ الله علي بالقبول مع تقدمي في السن، وكان التعليم بالفرنسية فقط، لا أعلم لها حرفا ولا نطقت بها من ذي قبل. فكان من حظي أن ساعدني على وجه الخصوص صاحب الفضل المعلم بوضياف وحريمه المعلمة كذلك في نفس المؤسسة، ساعداني بالقفز على بعض السنوات الابتدائية وتجاوزها بامتحانات خاصة إلى أن بلغت مرحلة السنة الأخيرة بعد أربعة سنين من الدراسة. فوجدتني فيها مع صــف التلاميذ المقبلين على امتحان "شــهادة منتهى الدراســات الابتدائية" والخروج نهائيا من التعليم كما كان سني آنذاك يكاد يتجاوز الحد الأقصى للسماح بامتحان ما كان يسمى "السنة السادسة"، فأذنت لي إدارة المدرسة بالتقدم إلى الامتحانين معا. وفضلا عن ذلك، كنت أتابع دروسا باللغة العربية كان يقدمها الشيخ القاسـمي، وذلك للتقدم إلى امتحان ثالث لاجتياز "السـنة السـادسـة بالعربية". وبالفعل خضـت غمار الامتحانات الثلاثة، وكان الأولان منها بالفرنسية في عين بسام والثالث بالعربية في ثانوية المقراني بابن عكنون.

ولأجل ذلك كان عليَّ أن أسـافر لأول مرة إلى العاصـمة لاجتياز الامتحان الأخير. غير أن وسـائل النقل آنذاك نادرة أو منعدمة. فما كان من حل للسفر سوى الذهاب على متن شاحنة كان صاحبها (الشيخ الشاوش) يحمل على متنها عددا من البقر لبيعها في ســوق الحراش (بالجزائر العاصــمة)، وكان يجلس معه في مقدمة الشــاحنة ابنه لاجتياز نفس الامتحان وعمي القريشـي لمرافقتي. ولم يكن المكان في الأمام متسـعا لأركب معهم، فخُصِّـصَ لي موقع مع مترشـح ثالث على حيز الحمولة في الخلف، ثم انطلقنا ســالكين طريقا يمر بطابلاط، وهي منطقة جبلية ذات التضـاريس المركبة والغابات المتراكمة، والطريق فيها وعر للغاية، له منعرجات عديدة ومتقاربة ومتسـلسـلة كأنما تراها بلا نهاية، والدورات فيها تثير صداعا ودوارا لا محالة.

غير أن زقزقة العصـافير كانت ترافقنا والشـمس من وراء الهضـاب تلوح بأنوارها والصـبح يطل بإشـراقاته الساحرة، ويكشف لنا عن مناظر شاسعة لم أشهد من قبل مثلها، كل ذلك كان ينسينا ضيق المركب وخوار البقر وأتعاب السفر. ولما وصلنا إلى العاصمة انبهرنا بعمرانها وزينة أحيائها، ولاحت لأبصارنا أرجاء البحر الممتد على طول الســاحل المترامي في أطرافه إلى أبعد الآفاق، فتنفســنا الصــعداء ونزلنا عند مركز الامتحان حامدين الله، وعليه توكلنا. وفي نهاية المطاف أعلن عن النتائج، فكانت الفرحة فرحتين: فرحة الفوز في الامتحانات الثلاثة، وأخرى أكبر وأجدى متمثلة في نهاية الحرب التحريرية وإعلان اسـتقلال الجزائر في الخامس من شـهر جويلية سـنة 1962، ولله الحمد والفضل كله. وبعدها انتقلت إلى المرحلة الثانوية في شهر سبتمبر من نفس السنة.

محمد السعيد مولاي (في الوسط)، مع الأستاذ يوسف منطلشطة (اليمين)، الأستاذ مقتدر زروقي (اليسار) خلال حفل تكريمه (10 جويلية 2023، جامعة باب الزوار)

السؤال 2. بعد الاستقلال، زاولتم دراستكم الثانوية بالعاصمة (ثانوية عمارة رشيد بابن عكنون)، كيف وجدتم أنفسكم في هذه الثانوية؟ وبمن تأثّرتم من أساتذتها... حدثنا أيضا بإسهاب عن هذه المرحلة؟

محمد السعيد مولاي: فعلا التحقت غداة الاستقلال بثانوية عمارة رشيد بابن عكنون، وهي ثانوية تأسست في عهد الاحتلال سنة 1953. وكانت منذ نشأتها -مع اثنتين أخريين في تلمسان وقسنطينة- تحمل اسم "الثانوية الفرنسية –الإسلامية"، وعند الاستقلال أصبحت تدعى باسم أحد شهداء تلاميذها البررة الذين تركوا مقاعد الدراسة وانضموا إلى الثورة لأجل تحرير البلاد والعباد من نير الاستدمار وقيود الاستعباد.

وكان التعليم فيها مزدوجا: قسم منها يتعلق بالتعليم وفق البرامج الفرنسية، يقوم به أساتذة جلهم فرنسيون ويتضمن جميع المواد العلمية، الدقيقة منها كالرياضيات والفيزياء وغيرها، والإنسانية كالفلسفة واللغة الفرنسية مع جذورها اللاتينية واليونانية، وما سوى ذلك. وأما القسم الثاني، فكان مختصا باللغة العربية وآدابها وبالثقافة الإسلامية التي كانت عموما تتلخص في دراسات العهد الجاهلي فصدر الإسلام إلى غاية العصر الحديث، وكان جلّ الأساتذة القائمين بهذا القسم قد أتوا من المدرسة الثعالبية.

فكان عليَّ في البداية أن أتأقلم مع الظروف الجديدة: البعد عن الأهل والخلان، والنظام الداخلي مع انضباطه الصارم، والدراسة صباحا ومساء في نفس المؤسسة تتخللها استراحات قصيرة غالبا ما ينتهزها التلاميذ للتحاور والمناقشات الهادئة أو لألعاب متنوعة وصاخبة لأنها كانت تجري في فضاء مشترك بين فرق متعددة.

وكانت الظروف متهيئة لننهل من معين العلوم على اختلاف أصنافها، نستقيها من مصادر أصيلة وعن أساتذة ذوي اختصاصات وكفاءات عالية، وذلك من كلا القسمين الفرنسي والعربي. فكانت الرغبة شديدة والعزيمة فولاذية للسعي وراء اكتساب المعارف والتنافس بين القرائن، لا نكتفي فيها بما نتلقنه أثناء الدروس، ولكن نقوم بعد انتهاء هذه الأخيرة بالمطالعة والمراجعة قد لا يوقف الكثير منا في ذلك سوى أوقات تناول الطعام أو حين يدقّ ناقوس النوم في المضاجع.

"ووجدتني تلقائيا وخُفية عن الأنظار أنحني لأسجد تعظيما لمن خلق فسوى."

أذكر أنني عزمت مع اثنين أو ثلاثة من الرفقاء الترشح لشهادة الأهلية (تدعى آنذاك: BEPC) سنة قبل أوانها وفزنا فيها جميعا. كما كان الأمر كذلك في التقدم إلى شهادة الباكالوريا الأولى [التي تجرى في المعتاد سنة قبل الانتهاء من الدراسة الثانوية] مع صديقي طولبا (وهو اختصاصي حاليا في طب الرضوض) وفزنا فيها أيضا. فسمحت لنا الإدارة بالقفز من السنة الثانية ثانوي إلى الأقسام النهائية. ولا زلت أذكر كثيرا من اللطائف والحوادث كانت قد جرت لي أثناء الدراسة، سوف أقتصر على اثنتين منها، على سبيل المثال لا الحصر.

الحادثة الأولى: كان عليَّ ذات يوم من السنة الرابعة ثانوي [الرابعة متوسط، حاليا] وفي حصة اللغة العربية مع الأستاذ القدير بلحاج شريفي، أن ألخص وأعرض على الزملاء في القسم كتاب "البخلاء" للجاحظ، وذلك لتعلم فنّ الخطابة. وكنت أول تلميذ يقوم بهذه المهمة وتجربتي فيها ضئيلة بل منعدمة. فدرست الكتاب وكتبت ملخصا عنه مع التركيز على بعض المشاهد عن البخل وعواقبه. ولما حان الموعد أقعدني الأستاذ على كرسيّه وجلس مكاني مع رفقائي تواضعا منه وحرصا على منحي فرصة التدريب على الخطابة كاملة.

فانطلقت في العرض شفويا وذلك بناء على ما استحفظت من الملخص الذي رميت به في أعماق الجيب. غير أني كنت من حين لآخر أبحث عنه لأستحضر ما نسيت، ثم أعيده من حيث استخرجته، وتكرّر الحدث مرارا، فكان العرض ينقطع من حين لآخر، فأخَلَّ ذلك بسياق الحديث وتسلسل الأفكار. ولم يحرك الأستاذ ساكنا بل تركني حتى فرغت من العرض. ثم قام لتوجيهي ونصحي، فقال: لا فض فوك يا فتى! الإلقاء جيّد، ولكن كان عليك أن تضع الملخص أمامك، فإن قرأته فلا تطل إمعان النظر فيه، بحثا عن الفقرة المطلوبة، بل ارفع رأسك من حين لآخر وانظر إلى الناس أمامك مخاطبا إياهم. وإن أردت عرضا شفويا فلك أن تلم بالموضوع جيدا وتكتب رؤوس أقلام قد تستغني عنها أو تعود إليها من حين لأخر بالتحليل والتفصيل. كما عليك أن تزيّن الكلام بالحكم وضرب الأمثال، وأن تجيد "فصل الخطاب" وتحسن "البلاغ المبين".

فكان درسا لا يُنسى سواء لي أو لرفقائي، وما زلت أذكره في الدروس والمحاضرات وعند المعاملة مع الطلبة على وجه الخصوص.

الحادثة الثانية: كانت مع درس من دروس العلوم الطبيعية التي كانت تشرف عليها الأستاذة الفرنسية الخلوقة "مدام كامبارغ"، وكان موضوع الدرس يدور حول علم وظائف الأعضاء، وعلى فيزيولوجيا العين على وجه التحديد. فقامت الأستاذة بشرح بنيتها تفصيلا وتشريحا، وبيان وظائفها الفيزيولوجية كلية. ثم انتقلت إلى تفصيل أصناف الخلايا، منها على وجه الخصوص خلايا الشبكية المستقبلة للضوء، وهي القضبان المسؤولة عن الرؤيا في الظلام والمخاريط التي تشتغل عند انتشار الضياء والتي تنقسم إلى ثلاثة أنواع، كل نوع منها حساس لأحد الألوان الثلاثة، الأحمر والأزرق والأخضر، وتُدرَك الألوان الأخرى بتراكيب متعددة ونسب محددة لتلك الثلاثة الأحدية.

فعلى سبيل المثال، إذا ألقيت بنظرة إلى بستان ذي بهجة وألوان زاهية استقبلت العين أضواءها المختلفة وحللتها عبر الأجهزة المتخصصة في داخلها، ثم تصب جميع الجزئيات المحللة على شكل إشارات متباينة في العصب البصري، لتنتقل عبره إلى حيز معين من الدماغ حيث يعاد تركيبها في شكل صورة ذهنية متطابقة تماما مع التي لاحت إليك في البداية، وكل ذلك في النهاية قبل أن يرتدّ إليك طرفك! فثارت مشاعري وكدت أصيح بالحوقلة لولا

أني امتلكت نفسي بشدة، واغرورقت عينايا بالدموع ووجدتني تلقائيا وخفية عن الأنظار أنحني لأسجد تعظيما لمن خلق فسوى.

فتلك عيّنتان من التفاعلات مع التحصيل الدراسي ومع الأساتذة الكرام في كلا القسمين العربي والفرنسي، كأمثال الشيوخ الحسين، وشريفي، وآغا، وبلحميسي، وبدري، وفخار من جهة، ومن جهة أخرى السيدات مادام كامبارغ، وبربانس، ولوانشي، والسادة بوالا، وكامبارغ، وكاروف، وصوريل، وغيرهم. ولقد ترك فينا كل طرف من هؤلاء وأولئك بصمات تتمثل في مشاعر ومواقف ذات قطبين كنت أراهما متناقضين:

فمن ناحية، كنا نتلقى دراسات تقتصر على الآداب والثقافة والعقيدة بلسان عربي مبين، كثيرا ما تثير في الأنفس مشاعر عليها طلاوة وحلاوة، أو تنطوي على عواطف جياشة تتسم أحيانا بغليان كغليان الحمية أو لها على عكس من ذلك من سمو الروح ما يقول به العارفون الذاكرون. وهي مشاعر وجدانية لا تخضع جلها لبرهان أو دليل وإنما تُلقن تلقينا أو نحفظها عن ظهر قلب. وكانت تلك الدروس تصاغ ضمن الثقافة العربية الإسلامية، من العهد الجاهلي إلى شعراء المهجر، مع مواد كثيرة كالنحو والصرف ومناهج البلاغة والنصوص الأدبية مثل مقامات بديع الزمان الهمذاني أو قصص مثل كليلة ودمنة لابن المقفع.

ومن ناحية أخرى، كنا نتلقف دروسا تتسم بالعقلانية الصارمة والبراهين اللامعة، كمثل علوم الرياضيات والفيزياء وغيرها، فهي منطقية لا ترى فيها خللا ولا زللا بل تجد فيها تسلسلا محكما وترابطا متينا، منها ما يدوم ثابتا عبر السنين والقرون لا تشوبه شائبة إلا أن يعاد برهانه بطرق أخرى قد تكون أجدى وأحرى، ومنها ما يكون من المقاربات القابلة للتحسين والتسديد. وما في المقاربات من عيب سوى أنها غير تامة تتطلب المزيد من البحوث لإكمالها وذلك من طبيعة التقدم العلمي الذي يسعى سعيا حثيثا نحو المطلق بعيد المنال. وكانت تلك الدروس من رحم الحضارة الغربية، تُلقن لنا بلسان أعجمي. ومن هذا وذاك تكوّن لدي سلوكان بمنهجين على طرفي نقيض.

فمن جهة، كنت أتصنع قول الشعر اقتداء بامرئ القيس مع رفيقايا كوديل ومالك، وألتزم بأداء الصلاة في المصلى الذي تقدم رفيقي عبد الحميد عشيط بطلب لفتحه باسم ثلة من التلاميذ إلى مدير الثانوية الشيخ العمراني رحمه الله.

ومن جهة أخرى، نظل بعد الدروس آخر النهار نجتهد في مراجعة العلوم الدقيقة على وجه الخصوص، وحل ما طلب منا من تمارين عنها أو نتنافس في المزيد عنها، ونسعى لابتكار البراهين وأنواع من طرق الاستدلال، كما نمعن النظر في تسلسل التحاليل التي سردها الأساتذة عن ظواهر طبيعية واقعية.

ففي هذا سلوك وجداني روحي، وفي الآخر سلوك عقلاني واقعي، فعشت في مدّ وجزر بينهما وأصبت بأزمة فكرية كأنها انفصام في الشخصية بين شقين متباعدين لم أجد لهما انسجاما ولا توافقا. وبقيت على هذه الحال إلى أن أدركت السنة النهائية في شعبة الرياضيات بالثانوية، وكان ذلك في شهر جوان 1968، فتقدمت إلى اجتياز شهادة البكالوريا بنوعيها: الجزائرية التي مرت بسلام والفرنسية التي جرى الامتحان فيها شفويا في كل المواد، نظرا لأزمة سياسية واجتماعية في فرنسا، انطلقت شرارتها من طلبة الجامعات الفرنسية، وانتشرت في الطبقات العاملة في أغلب المدن لتشكل أهم حركة احتجاجية في القرن العشرين من تاريخ فرنسا. وكانت لذلك ارتدادات في الجزائر، فلجأت السلطات إلى إجراء الامتحانات داخل مقر القنصلية الفرنسية، يُسأل ويُجيب الممتحَن مباشرة أمام الأستاذ الممتحِن.

وقد كُتب لي النجاح فيها أيضا وانتقلت إلى الجامعة آملا في شفاء لغليلي ومستبشرا بمزيد من العلم والمعارف.

الحضور في حفل تكريم محمد السعيد مولاي يوم 10 جويلية 2023 بجامعة باب الزوار، ويظهر الأستاذ مولاي في وسط الصف الأول

السـؤال 3. تابعتم دراسـتكم في الجامعة بدءا من 1968، وتخرجتم من قسـم الرياضـيات عام 1971، والتحقتم بسلك التدريس هناك. وكان لكم باع في تدريس الرياضيات باللغة العربية. حدثونا عن تفاصيل بدايات وحيثيات هذه المرحلة من التعريب.

محمد السـعيد مولاي: فعلا التحقت بكلية العلوم – قسـم الرياضـيات العامة والفيزياء (MGP)، في شـهر سبتمبر 1968، وذلك في الجامعة المركزية بالعاصمة والتي كانت تعتبر امتدادا للجامعة الفرنسية، منذ نشأتها سنة 1909، من حيث برامجها التعليمية وخاصـة من خلال الأسـاتذة الفرنسـيين المتعاونين الذين كانوا ذوي كفاءة عالية.

والجدير بالملاحظة أن المرحلة التي قضـيتها لنيل شـهادة الليسـانس والدراسـات المعمقة في الجزائر وشـهادة الدكتوراه- الدور الثالث في جامعة نيس، مشـار إليها في نبذة تاريخية ضـمن مقال للأسـتاذين عمار القلي ومارتن زرنار Zerner، بعنوان: "محاولة لأجل التعاون المسـتقل- تشـكيل فريق بحث في الرياضـيات بالجزائر العاصـمة (1966-1978)" (انظر الرابط: https://journals.openedition.org/cres/390) نشر عام 2010.

لذا سـوف أقتصـر على بعض النقاط التي لم تذكر في المقال المشـار إليه، منها، في بداية السـنة الأولى، أن الأسـتاذ المشـرف على القسـم فاجأنا بالقيام بإجراء اختبار غير رسـمي على جميع المسـجلين الجدد، لفرز القادرين على المتابعة عن غيرهم ونُصِح من يظنهم غير مؤهلين لدراسة المادة وتوجيههم إلى قسم العلوم الطبية أو ما سواها، وكان يفعل ذلك منذ سنين خلت.

وقد ذاع في فضاء ما يسمى بـ"عمارة الرياضيات" القول بصعوبة هذا الفرع (MGP)، لكن الطلبة أجمعوا على البقاء أيا كانت النتائج، وكان تحديا اجتازه جلنا بالانتقال إلى السـنة الموالية. وعلى إثر ذلك، توقف الأسـتاذ المشـرف بعد سـنتين عن إجراء اختبار كان إثمه أكبر من نفعه، إذ كان يثير نوعا من العقد النفسـية، ولم يكن

ضروريا لأن من شروط التسجيل كانت الحيازة على شهادة الباكالوريا، شعبة الرياضيات، ولا يُقبِل عليها غالبا إلا من اختارها عازما على متابعتها.

هذا، وقد ذكرت سابقا أنني كنت في المرحلة الثانوية أعاني من أزمة فكرية بين دواعي المسالك الوجدانية وسبل المناهج العقلانية، إذ كنت أحملهما في كياني معا، ولم أر سبيلا كافيا مانعا إلى التوافق والانسجام بينهما. وكان أملي كبيرا أن أجد لذلك علاجا شافيا في مدرجات الجامعة، غير أن أمري ازداد حدة في الأوساط الجديدة، وفي بيئة متناغمة مع الأجواء الغربية وصراعاتها الأيديولوجية، تسودها أساسا رياح الماركسية اللينينية. وجاء الفرج ولله الحمد والمنة، إذ كان من حظنا في تلك السنة فتح مصلى الطلاب في الجامعة، والتعرف من خلاله على المفكر القدير مالك بن نبي، الذي تنبأ لمثل تلك الأزمات الفكرية وعالجها ضمن دراساته عن "مشكلات الحضارة" وخاصة في كتابه "الظاهرة القرآنية".

أما عن تدريس العلوم باللغة العربية، ومرحلة التعريب العام في بداياته وحيثياته، فقد ذكرت جانبا عنها حين أدليت بشهادتي في مجلة البشائر الغراء عن المرحوم والمغفور له بإذن الله تعالى الأستاذ الرفيق والصديق العزيز عتيق يوسف (انظر الرابط: https://www.ens-kouba.dz/magazine/pdf/n5/atik.pdf).

باختصار، بعد انتهائي من مرحلة الليسانس سنة 1971، عُينت مباشرة كمعيد في أحد المقررات، وكان التدريس آنذاك بالفرنسية فقط. وصدر في صائفة تلك السنة قرار بإصلاح شامل للتعليم العالي والشروع في تعريب العلوم. وأخبرني المرحوم يوسف عتيق بافتتاح القسم العربي فاقتحمناه معا، وتحوّلنا من مرتبة المعيد في القسم الفرنسي إلى التكليف بالدروس مع الأعمال التوجيهية في القسم العربي لقلة الإطارات فيه. وبحكم تكويني المزدوج في المرحلة الثانوية، لم أجد صعوبة في صياغة المصطلحات حين لا أجدها في المعاجم المتوفرة لدينا آنذاك، وكانت قليلة تكاد لا تذكر.

وتعزز القسم العربي في السنوات الموالية، بكفاءات معتبرة، منهم الزملاء خالد سعد الله وعبد الحفيظ مقران وبعض الأجانب العرب. ولما استقر الثلاثي سعد الله ومقران وعتيق في المدرسة العليا للأساتذة بالقبة قاموا بجهود جبارة وفريدة بالترجمة والتأليف للعديد من الكتب والمنشورات بالعربية، وبإصدار معجم عربي- فرنسي للمصطلحات في علوم الرياضيات وذلك لسدّ الفراغ الرهيب والنقص الكبير في المقررات العلمية باللسان العربي.

ثم التحقت بهم كفاءات أخرى وتوسع تعريب العلوم في المدرسة ليشمل جميع المواد ويتعدى إلى رسالات الماجستير والدكتوراه. وكثيرا ما أثارت هذه الإنجازات حفيظة الحاقدين على لغة الضاد، يريدون حصرها في قول الشعر والتغني بالأمجاد، وإبعادها عن العلوم الحديثة لتهميشها أو محوها إطلاقا.

وبالنسبة إليّ، فقد واصلت التدريس في القسم العربي بالجامعة المركزية، وقد ازدهر القسم بمجيء أحد المتعاونين الفرنسيين، ذي كفاءة عالية وهو الأستاذ بيار قريزفارد Grisvard (أو بطرس)، كما كان يحلو له أن يسمى، والذي قام بتدريس إحدى المقررات المتقدمة في طور الليسانس (وحدة المعادلات التفاضلية)، وأصدر مطبوعة جامعية لدروس ذلك المقرر مع ترجمتها فيما بعد إلى اللغة العربية. مما زادنا عزما وهمة لرفع التحديات المحيطة بتدريس العلوم الحديثة باللغة العربية.

"فطالبت بفتح أقسام عربية في الاختصاصات المتبقية، ولكن بدون جدوى..."

كما قام هذا الأستاذ بفتح شهادة "دبلوم الدراسات المعمقة"، فتابعت دروسها مع بعض الزملاء، منهم خالد سعد الله ويوسف عتيق وقدور لمرابط، وكُتب لنا النجاح في هذه الشهادة. وفي آخر السنة الدراسية قرر الأستاذ

بيار قريزفارد العودة إلى جامعة نيس لالتزاماته بها، وانتقلنا معه وبتزكية منه، أنا وسعد الله ولمرابط لتحضير رسالة الدكتوراه معه.

وبعد الانتهاء من هذه الرسالة والحصول على الشهادة، حثنا "بطرس" على الرجوع إلى البلد لحاجة الجامعة الجزائرية إلينا، مع أن التوظيف في جامعة نيس كان متوفرا. فالتحقت بجامعة باب الزوار وباشرت التدريس في القسم العربي والقسم الفرنسي.

وكان سائدا آنذاك نظام "دبلوم الدراسات العليا" (DES) في أربع سنوات، يشتمل فيه القسم العربي على جزء من السنوات الثلاثة الأولى، وأما السنة الرابعة فكانت تنقسم إلى أربعة اختصاصات، منها ما بلغها التعريب. وكنت مسؤولا عن خلية التعريب في معهد الرياضيات، فطالبت بفتح أقسام عربية في الاختصاصات المتبقية، ولكن بدون جدوى، ولا حياة لمن تنادي.

ولما انتخبت مديرا على رأس نفس المعهد، حاولت من جديد، لكن وجدت معارضة شديدة من قبل المجلس العلمي، والأدهى أن البعض ممن كنت أعتقد أنهم يساندون القضية كانوا على رأس المعارضة!

وبعدها، في بضع سنين، علمت من بعض الأساتذة الإداريين، أن مدراء الجامعات كان يأتيهم الأمر شفويا وهمسا في الآذان– دون أي قرار مسجل ولا مرسوم بيّن - بإغلاق الأقسام العربية في التخصصات العلمية، واستبدالها بالأقسام الفرنسية، وذلك بدعوى التقدم والالتحاق بالركب الحضاري، والنأي عن التخلّف والتقهقر. ولكيلا يحتج الطلبة أو الأساتذة بهذا "الانقلاب اللغوي الفجائي" فُرضت مقررات للتعرف على المصطلحات العلمية بالفرنسية وذلك لتمكين الطلبة -في زعمهم- من متابعة الدروس باللغة ذاتها.

لكن هذه العملية لم تكن سوى ذر الرماد في العيون، لأن تلك المقررات ما لبثت إلا قليلا لتُسحب من المناهج بلا رجعة. وكم من طالب -خاصة أثناء الامتحانات- كان يسألني: "يا أستاذ، كيف تقول كذا بالعربية حتى أجيب على السؤال... رجاء كيف تسمى هذه المفردة... ما معنى هذه الجملة... ما معنى هذه العبارة؟" ثم يقال إن الطلبة لا يحسنون أي لغة، وأن مستواهم ضعيف للغاية.

وتم "الانقلاب" في صمت رهيب، وسلام ينشره "سيف ديموقليس". وبعد فترة قصيرة من الزمن، وفي ظروف صعبة كانت تمر بها البلاد، فرض دهاة المتربصين تجميد قرار تعميم اللغة العربية في كل المجالات، واتسع الفضاء بأبعاده وأرجائه لما سموه بـ"غنيمة الحرب"، وارتاحوا من "غنيمة السلف" لتوقفها بهذا القرار الدائم.

واليوم، عندما أُعلن عن قرار لطالما ارتفعت الأصوات بطلبه، وهو قرار استعمال اللغة الإنجليزية بدلا من اللغة الفرنسية، وقد هُيئت له كل الإمكانيات للطلبة والأساتذة لإنجاحه، تعود من جديد طبول المعارضة لتدقّ بأنغامها المألوفة، مع أن عملية الانتقال من الفرنسية إلى الإنجليزية تقع في وعاء مشترك، وهو وعاء اللغات الهندية-الأوروبية، وذلك أيسر بكثير من الانتقال إليها انطلاقا من اللغات السامية، كما هو الشأن في التحويل من العربية إلى الفرنسية. أضف إلى ذلك إشكالية تغيير اتجاه الكتابة إلى عكسه خاصة في مسألة الرموز.

فكأنما ذاكرة القوم متحيزة، تندفع نبضاتها كالشرارة عندما تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وتسترخي على بساط من حرير حين ترى المياه تجري في غير مجاريها.

ونتساءل حين نستحضر تلك الظروف البائسة التي مرت بها الجامعة أيام غلق الأقسام العربية: أفلا يتذكر هؤلاء المتربصون بثوابت أمة سادت حضارتها بالأمس القريب، أنهم استبدلوا العربية بالفرنسية بالسر والكتمان (تحت الطاولة كما يقال) وبوسائل فاشلة لا تمتّ بصلة إلى المنهجية السليمة، وليس لها أدنى تقدير لما كان بها من خطورة على جماهير الطلبة المعرّبين؟

السـؤال 4. كيف كان الجو الدراسـي في بداية السـبعينيات بجامعة الجزائر؟ هل من مقارنة مع أجواء الجامعات اليوم في البلاد؟

محمد السـعيد مولاي: كانت بداية السـبعينيات حافلة بالأنشـطة الطلابية سـواء من ناحية الدراسـة أو الحركات الثقافية والسياسية والدينية، وقد كانت تسمى تلك الفترة بعهد الصحوة.

أما من ناحية الإقبال على الدراسة فقد كان الجد والكد وسهر الليالي والتنافس من أبرز سمات الطلبة. ومن علامات ذلك أن الطالب كان يخجل من طلب الأسـاتذة بالزيادة في العلامة وإنما كان همّه تصـحيح الأخطاء ليتفاداها مستقبلا، وكثير منهم يحبون طلب العلم ليس لدنيا يصيبها ولكن لأجل الرقي إلى مصف العلماء.

وأما النشاط الجمعوي فكان متعددا ومتنوعا، تبعا لتضارب وتباعد التصورات المذهبية والتوجهات الفكرية التي كانت سائدة آنذاك.

"وكانت من شعاراتهم 'يجب تحريم القول بالحرام'..."

فهذا اتحاد الطلبة الذين يترددون على المدرجات أو في المطاعم والأحياء الجامعية لتوعية الطلبة بحقوقهم والمطالبة بتوفيرها أو شـن الإضـرابات للضـغط على السـلطات قصـد تلبيتها. وهذه جمعيات طلابية تقوم على وجه الخصوص بتنظيم حفلات ساهرة في الأحياء الجامعية، قد أطلقت العنان لمفهوم الحرية، مقلدين في ذلك شعارات الطلبة الذين قاموا باحتجاجات عارمة على الأوضـاع الاجتماعية وعلى التقاليد والأخلاق في ماي 1968 بفرنسـا، يُدعون بأصحاب الثمانية وستون (les soixante huitards)، وكانت من شعاراتهم "يجب تحريم القول بالحرام".

وهذه جموع من اليسـاريين بأطيافهم المختلفة (الاشـتراكيون، والماركسـيون اللينينيون، والتروتسـكيون) قد بسـطوا هيمنتهم على الجامعة، وهم بالمرصـاد لأي مسـؤول خارج الجامعة، ولو كان رئيس الدولة، أن يتدخل في شـؤونهم، وذلـك بنـاء على قوانين التعليم العـالي الموروثـة عن النظـام الفرنسـي وتـدعى" les Franchises Universitaires"، تنصّ على منح الجامعة امتيازات خاصـة، يتعين بموجبها مثلا ألا تتدخل الشـرطة في شـؤونها بأي حجة كانت إلا بإذنها.

لكن الرئيس الراحل لم يعبأ بمثل هذه القوانين ونزل ضـيفا لأول مرة على المدرسـة متعددة التقنيات بالحراش، وفيها ألقى خطابا انتقد فيه بشـدة تلك القوانين وألغاها. ثم أبرم من بعد ذلك اتفاقا مع الحزب اليسـاري الذي تنتمي إليه هذه الطائفة من الطلبة لتطبيق مشـروعه في الثورات الثلاث: الثقافية والزراعية والصناعية. فوجد هؤلاء الطلبة ضالتهم في هذا الاتفاق وازدادت قبضتهم على المؤسسة الجامعية بحيث أصبحوا ينظمون ما يسمى بلجان التطوع أفواجا أفواجا لأجل التواصل مع الفلاحين في الأراضي التي منحت لهم فيشرحون لهم مقاصد تلك الثورات، ربما كان ذلك وفق تصوراتهم اليسارية.

وكما تنص أحد المبادئ الفيزيائية بأن لكل فعل رد فعل، فكذلك هي القاعدة في الشؤون الاجتماعية، إذ برز جمع آخر من الطلبة يدعون بالمناقشـة والدليل إلى تصحيح ثوري يتماشى مع ثوابت الأمة. وقد سـاندهم في ذلك حزب جبهة التحرير بمنشـور وُزع على الطلبة ويُزكي فيه المخلصـين لمبادئ أمتهم ويسـتنكر مواقف الذين يرمون بالرجعية والفاشية كل من خالفهم الرأي.

وأما الحديث عن المقارنة مع الأجواء الحالية، فقد حدثت تغييرات عديدة وأسـباب ذلك كثيرة. أولاها عدم الاستقرار في مجالات عدة. وقد أثر ذلك كثيرا في التحصيل العلمي لأجيال متتابعة من الطلبة. انظر مثلا في مسألة

اللغة الجامعية. غداة الاستقلال كانت لغة المستعمر هي السائدة، وثقافة أغلب المثقفين، الوطنيون منهم والأجانب على اختلاف توجهاتهم، كانت أغلبها أيضا بنفس اللغة. ثم جاء قرار التعريب الشامل، وكادت جميع المؤسسات الجامعية والمعاهد العليا تتعرب برمتها شرقا وغربا، كما فتحت أقسام باللغة الانجليزية في المراحل الابتدائية لكي يتابع التلاميذ تعليمها إلى جميع المستويات في المراحل المتوالية. وبفعل فاعل أغلقت الأقسام الإنجليزية في مهدها، ثم نزل كالصاعقة قرار تجميد تعميم اللغة العربية وغلق الأقسام العربية في كل الجامعات العلمية، وبقيت بعض المدارس العليا التي صمدت بالرغم من المحاولات العديدة لغلقها أو تحويل لغة التدريس فيها.

والآن تجري تحولات جذرية، منها استبدال الفرنسية بالإنجليزية وتغيير المناهج لربط الجامعة بمجال الصناعة والتنمية، ونسأل الله لهذا المشروع الجريء التوفيق والسداد، ولكن لنحذر ثم نحذر، فإن طبول المعارضة بدأت تدق من جديد. فهل ستفعل فعلتها كما مضى أم أن في الأمر تجديدا أو جديدا. ونرى من هذا أن الطلبة هم ضحية عدم الاستقرار، فضعف الطالب والمطلوب.

ومن ناحية أخرى، فإن طالب اليوم يتحمل مسؤوليته في ظهور كثير من الانحرافات والعيوب، منها على سبيل المثال، لا الحصر:

* الميل إلى رغد العيش والسهولة المفرطة، بينما يقول المثل من جدّ وجد ومن زرع حصد، ومن سار على الدرب وصل، ومن طلب العلا سهر الليالي.

* طلب رفع العلامات من دون استحقاق لها ودون مبالاة بالأخطاء المرتكبة. وفي كثير من الأحيان يتدخل الأولياء لنفس الغرض، وهي بدعة لم نر مثلها في تصرفات أيام زمان.

وأكتفي بهذا القدر، عسى أن يلهم الله أبناءنا الطلبة وبناتنا الطالبات علو الهمّة والرشاد وقوة العزيمة والسداد.

السؤال 5. حصلتم عام 1973 على منحة دراسية لفرنسا، ونلتم على إثرها دكتوراه الدور الثالث، وعدتم إلى الجزائر لممارسة التدريس خلال نحو 10 سنوات بجامعة باب الزوار. كيف كان مشواركم الدراسي في فرنسا، وكيف تقيّمون إسهامكم في تدريس الرياضيات خلال تلك الفترة وما بعدها؟

محمد السعيد مولاي: بالفعل حصلت وإياك على منحة دراسية سنة 1973 والتحقنا بجامعة نيس حيث كان في استقبالنا الأستاذ بطرس قريفارد، وهو الذي أشرف علينا في رسالة الدكتوراه الدور الثالث. ولا زلت أذكر

حين كنا متواجدين للسفر في مطار هواري بومدين، حيث كان يرافقك أخوك الكبير والمرحوم شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله، يقدم لك النصائح الثمينة لمباشرة الحياة في المهجر، وكنت أستمع إليه بشغف.

ومنحنا بطرس مكاتب بجواره داخل مكتبه الواسع، نشتغل سويا في نفس المكان، كلانا الاثنان ولمرابط قدور ومحند موساوي الذي كان يُحَضر لشهادة الدكتوراه الدولة. وكل واحد منا في شغل شاغل بموضوع رسالته. وكانت بيننا مناقشات مستمرة، كما تعرفنا على كثير من الباحثين في ميادين متعددة، وكنا نتابع سلسلة من المحاضرات الخاصة، من بينها تلك التي كان يلقيها مؤسس جامعة نيس وأحد المؤسسين البارزين لفريق بورباكي وهو جان ديودوني Dieudonné، وكذلك جاك لويس ليونس الذي كان من تلاميذه بطرس. وكان بالقسم ملتقى أسبوعي تُلقى فيه دروس متخصصة أو محاضرات عامة يحضرها الأساتذة وطلاب الدكتوراه معا. وقد كوَّنا كذلك فرقة عمل تحت إشراف زرنار لدراسة الأوساط المسامية وعلاقاتها بالمياه الجوفية والمحروقات وذلك تحضيرا للتعامل في مجال البحث العلمي مع شركة سوناطراك ووزارة المياه.

وعموما كانت الظروف مهيأة والحياة ميسرة للكد والعمل الجاد، ولبثنا ثلاث سنوات متتالية بنيس، إلى أن تحصلنا على شهادة الدكتوراه كلنا، وعدنا إلى أرض الوطن جميعا، والتحقت شخصيا بجامعة باب الزوار في سنة 1976، وقد مرت على افتتاحها سنتان.

"لاحظت ... اختلافا كبيرا في سلوك الطلبة بين الغرب والشرق..."

فقمت بالتدريس وطفت بسنوات "دبلوم الدراسات العليا" كلها واستقر عملي ببعض المقررات منها المقرر "M13" الذي يشتمل على التحليل العقدي وتطبيقاته، والذي كان في مفترق الطرق يمر جميع الطلبة به ليتوزعوا بعد ذلك على مختلف الاختصاصات. وكان من بين الطلبة الذين هم الآن أساتذة، قد احتفظ بدقة بالدروس التي كنت ألقيها، فعرضت عليه أن نجمعها في كتاب ونقوم بطبعها معا، وذلك ما حصل والكتاب قيد التحضير للطبع.

ومن الأعمال الموازية للتدريس، كانت لي مشاركة في ملتقى التحليل الأسبوعي وكذلك في فرقة عمل تهتم بالبحوث في مجال الأوساط المسامية، وكانت تضم كلا من محند موساوي والسعيد بن عاشور وقدور لمرابط وجمال تنيو وآخرين، ثم كان لي ضمن هذه الفرقة تواصل مع باحث فرنسي مختص في الأوساط المسامية، وقد زارنا في باب الزوار، وهو ميشال بيار، فطلبت انتدابا من جامعة باب الزوار، والتحقت بجامعة بوانكاري، بمدينة نانسي سنة 1985 حيث يعمل الأستاذ ميشال، وذلك لتحضير رسالة دكتوراه الدولة.

وفي هذه الجامعة التحقت بهيئة التدريس كأستاذ مشارك في مادة الرياضيات، كما أشرفت على حصة تلفزيونية في القناة الفرنسية "أنتان 2"، ممثلا لمسجد باريس. وانتهيت من تحضير الرسالة بعد نشر بعض المقالات، ورجعت إلى أرض الوطن، بعد ثلاث سنوات قضيتها في مدينة نانسي.

عدت إذن إلى جامعة باب الزوار حيث كانت لي أنشطة متعددة بين التدريس في الأطوار الثلاثة لنظام ل.م.د (LMD) وأشرفت على فريق من البحث كما توليت عددا من المسؤوليات، منها مدير معهد الرياضيات ورئيس المجلس العلمي ومسؤول عن التكوين في الدكتوراه، وغير ذلك.

كما أشرفت على تنظيم ملتقيات، منها الوطنية والدولية، وخصصت أولى هذه الملتقيات لذكرى بطرس قريزفارد اعترافا بما قدمه للجامعة الجزائرية.

وخلال هذه الفترة من الأشغال المتواصلة، التحقت بإحدى الجامعات العربية لمدة خمس سنوات وذلك رغبة مني في التعرف عن قرب على المشرق بعد قضائي بضع سنين في بلاد الغرب، وكذلك لأجل تحسين وضعي

الاجتماعي والتقرب أكثر من المقدسات الإسلامية. وقد كنت في تلك الديار بصحبة المرحوم والمغفور له بإذن الله تعالى، الأستاذ عتيق، فأدلينا بدلونا ما استطعنا في ترقية التعليم وتعرفنا على رجال ذلك البلد الأمين، أهل الجُود، والكَرَم، والسَّخاء.

وقد لاحظت أثناء التدريس في الخارج اختلافا كبيرا في سلوك الطلبة بين الغرب والشرق، وفي ذلك مؤشرات قد تعين على إدراك مميزات التقدم العلمي والمعرفي وأسباب التخلف والتخلي جزئيا أو كليا عن مقومات الاجتهاد. ولبيان ذلك، لعله يكفي أن أذكر فيما يلي مشهدين من التعامل بين الطلبة والأساتذة، أحدهما غربي والآخر شرقي.

في المشهد الأول، كنت في جامعة نانسي أشتغل في مكتبي وكان بجواري مكتب أستاذ يُعدّ من أحسن الأساتذة خلقا وعلما، وكانت الأبواب مفتوحة على الأروقة، لكن لا تسمع فيها إلا همسا، والأرض مجهزة بأفرشة لا ترد لراجل صدى. وذات يوم جاء أحد الطلبة إلى الأستاذ يريد منه إضافة نصف نقطة لعلامة الامتحان، كان يرى أنه أحق بها. فأجابه الأستاذ قائلا: "أتريد مني أن أغير علامتك؟ فذلك يستدعي تحريك الجبال من مواقعها! ".

وأما المشهد الثاني فكان في البلد العربي، حيث كنت أستاذا في إحدى الجامعات، يأتيني بعض الطلبة، بعد الامتحان، وهم ذوو أخلاق حميدة وأكثرهم من حفاظ كتاب الله، يلحّون عليّ قائلين: "يا دكتور، أنت كريمٍ! تكرم علينا بكذا وكذا نقاط".

ولك أن تحكم بين السلوكين، فهما من معينين مختلفين، ويدلان على ثقافتين متناظرتين. وما نحن في جامعاتنا بمبعدين عن الطرفين. وإن الإفراط في الصرامة والتفريط في الكرم يخلان بالتوازن المفقود، والشيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.

محمد السعيد مولاي رفقة حفيد المرحوم عبد القادر خلادي (1944-2021) خلال حفل تكريم الأستاذ مولاي في القاعة التي تحمل اسم عبد القادر خلادي بكلية الرياضيات (باب الزوار، 10 جويلية 2023)

السؤال 6. كنتم أشرفتم على وضع أسس المدرسة الوطنية العليا للرياضيات، وتم تعيينكم كمدير لها عند افتتاحها. وكان عليها إقبال كبير من قبل نجباء التلاميذ. هل ترون أنها تقدم الآن لهؤلاء الطلبة ما ينبغي أن يكون في مجال التكوين؟ أو أن هناك معاناة؟

محمد السعيد مولاي: فعلا، عينت بداية، من طرف وزير التعليم العالي سابقا الأستاذ شمس الدين شيتور وبحضور وزير التربية سابقا الأستاذ محمد واجعوط، رئيسا لمشروع المدرسة الوطنية العليا للرياضيات، وذلك بهدف الإشراف على تجهيزها بكل المعدات اللوجستية والبيداغوجية لتكون في مستوى المدارس الكبرى العالمية، وكذلك لغرض آخر، وهو إعادة الاعتبار لعلوم الرياضيات في بلدنا، لكونها العمود الفقري للتنمية والإبداع والتقدم العلمي والتكنولوجي، خاصة في عصرنا هذا الذي يمتاز بالرقمنة الشاملة والحاجة الماسة إلى تطوير المناهج الرياضياتية للتقدم في الذكاء الاصطناعي خاصة وما سوى ذلك من العلوم عامةً.

وشرعت في أداء المهام على اختلاف أنواعها والتي كان من بينها على وجه الخصوص تحضير برنامج دراسي لخمس سنوات متواصلة وفق الأهداف المرجوة من المدرسة والمسطرة لها.

فقمت لأجل ذلك بتكوين فريق عمل، عُين بقرار وزاري، ويتألف من باحثين متعددي الاختصاصات، من داخل الجزائر ومن خارجها، وهم أصحاب كفاءات عالية، منهم من يعمل في مراكز دولية، ومنهم على رأس جامعات أو معاهد أوروبية، ولهم خبرة واسعة بالعمل في المدارس الدولية أو الوطنية.

وتم تحضير البرنامج الدراسي لخمس سنوات مع برامج ثرية لعدة تخصصات. ونظمت وزارة التعليم العالي ورشة عمل حول "الرياضيات والذكاء الاصطناعي" في الرابع عشر من شهر جوان سنة 2021، وقمت في هذه الورشة بتقديم المدرسة في أهدافها ومحاورها المفصلة والبرامج البيداغوجية وكيفيات التقييم، وكذلك فعل زميلي المشرف على مدرسة الذكاء الاصطناعي الأستاذ أحمد قسوم، وكان ذلك بحضور الهيئات الرسمية وجمع غفير من الأساتذة جاءوا من أنحاء الوطن، وكللت الورشة بمناقشة وبالتوصيات.

وبعد ذلك، عُينت مديرا منتدبا للمدرسة وشرعت مع فريق العمل في تحضير الدخول إلى المدرسة. ولأجل ذلك كان لا بد في البداية من التعريف بالمدرسة وأهدافها وجلب الطلبة إليها. فقمت بزيارة ثانوية الرياضيات بالقبة، ونظم لي فضيلة المدير عدة لقاءات مع تلاميذ القسم النهائي لتوعيتهم بمهام المدرسة العليا، كما استضافتني قناة المعرفة عدة مرات أيضا للقيام بنفس المهمة، ولا أنسى صاحب دار النشر "كليك"، الأستاذ سايس، الذي مكنني من الاتصال بآلاف حاملي شهادة الباكالوريا الجدد وذلك عن طريق شبكات التواصل الالكتروني التي كان أصحابها يقدمون دروس التدعيم عن بعد للمترشحين لامتحانات الباكالوريا.

وجاء يوم الافتتاح فقمنا بتسجيل الطلبة وتحضير الأساتذة بتعيينهم للإشراف على مواد السنة الأولى. لكني فوجئت آنذاك بأمور كثيرة منها:

- أولا: لم يُعتمد من البرنامج الدراسي الذي قدمته سوى برنامج السنة الأولى ولم يصلني إلا في آخر لحظة.

- ثانيا: لاحظت تغييرا في هذا البرنامج، بحيث انتُزع من البرنامج الذي تقدمت به مع فريق العمل، مواد معينة واستبدلت بأخرى لم نأخذها بعين الاعتبار في السنة الأولى، وتتعلق بتاريخ الرياضيات والجيوبوليتيك وغيرهما. وتلك مواد ليست من الأساسيات خاصة في السنة الأولى التي يحتاج فيها طلاب النخبة إلى "المواد الصلبة" في الرياضيات كما هو الحال في المدارس الدولية المتخصصة في هذه العلوم.

- ثالثا: عُين أساتذة لم أتصل بهم في مكان آخرين معينين من قبل، ومكلفين بتدريس مواد معينة. فوقع اضطراب في هيئة التدريس، ذلك لأن جميع الأساتذة قد أخذوا احتياطاتهم وطلبوا من جامعاتهم الأصلية إعفاءهم من مهامهم ليلتحقوا بالمدرسة.

وتزامن ذلك مع الافتتاح الرسمي للمدرستين معا، وكان إقبال كبير للطلبة، وكلهم أمل واطمئنان بتحقيق رغباتهم وأحلامهم في هاتين المؤسستين المرموقتين.

"تذكرتُ حينها قول محمد عمارة: 'إن نجاح المدرسة مرهون بنجاح السنة الأولى'".

وبعدها بأيام قلائل، وذات صباح وأنا مع الأستاذ عقبة من المدرسة متعددة التقنيات بالعاصمة، في إحدى المحلات التجارية بمدينة سيدي عبد الله وعلى مقربة من المدرسة، نشتري من جيوبنا بعض التجهيزات الإلكترونية، وذلك لسد بعض الحاجات الضرورية للتسيير، إذا بالهاتف يرنّ، فإذا بكاتبة الأمين العام للوزارة تؤكد وجوب الحضور على عجل. فانطلقنا مباشرة إلى مقر الوزارة لأتفاجأ بنبأ إنهاء مهامي من المدرسة وتعيين أستاذ آخر مديرا منتدبا ريثما يُعيّن من سيتم تعيينه بمرسوم.

فرجعت إلى المدرسة لأجمع أغراضي، وسمع الطلبة بمغادرتي للمدرسة فالتف جمع كبير منهم لأخذ صور تذكارية معي وطرحوا عليّ تساؤلات كثيرة. وخرجت من المدرسة محتسبا لله، وسمعت من بعد بإشاعات لا أساس لها من الصحة، ولا داعي لذكرها في هذا المقام.

الآن، للإجابة على سؤالك: "هل تقدم المدرسة الآن للطلبة ما ينبغي أن يكون في مجال التكوين؟ أو أن هناك معاناة؟"، فإن جوابي عن ذلك باختصار شديد، أنني غادرت المدرسة، وهي في بدايتها وانطلاقها، وبالتالي لا أعلم الكثير عما جرى ويجري فيها إلى الآن من بعدي، سواء من معاناة الطلبة أو ما سوى ذلك. ولكني حدثتك فيما سبق عن تلك الاضطرابات والمفاجآت التي لم أجد لها تفسيرا ولا مبررا. وما زادني في الأمر حيرة أن السيد المدير الحالي استضافني في المدرسة ورحب بي بكل احترام وتقدير، وقيل لي إنه لا يملك أي برنامج للمدرسة ما عدا برنامج السنة الأولى. ورأيته يجتهد مع فريق من الأساتذة لإعداد برنامج السنة الثانية، على أن يتم إعداد السنوات الأخرى واختصاصات التخرج لاحقا وفي أثناء تقدم الطلبة. فسألت: ألم تستلموا نسخة من البرنامج الذي حضرته لجنة من الخبراء؟ قيل: لا، ولم نسمع بذلك.

إن في هذا الأمر لعجب عجاب، إذ لا زلت أتساءل عن أسباب سحب وإخفاء البرامج الدراسية (للسنوات الأولى المشتركة وسنوات الاختصاص) من دون أي مساءلة أو استفسار فريق الخبراء الذي وضعها مسبقا؟

وقد ترتبت على إثر ذلك كما ذكرتُ اضطرابات في مناهج المدرسة منذ افتتاحها، واضطر القائمون عليها من بعدي إلى لاجتهاد في وضعها ثانية أثناء الدراسة ! كأنما لم يسبقها تحضير لها ولا تفكير في شأنها! وأصبح كثير من طلبة النخبة في حيرة من أمرهم يتساءلون عن أي اختصاصات سوف يتخرجون بها من المدرسة، وعن أي ضمانات لمستقبلهم أو للمواعيد التي زُينت لهم؟ ولك أن تتخيل كم كانت كبيرة صدمة المشاركين في تأسيس المدرسة ووضع البرامج الدراسية التي تقدمت بها فرقة الخبراء الأولى، من داخل البلاد وخارجها، وكلهم من الباحثين البارزين، كانوا ينتظرون بكل شغف

وحزم، عن بعد أو في عين المكان، في رفع مستوى الدراسة والتكوين إلى مصف المدارس الدولية العليا، ومنهم من لهم تجارب طويلة في هذه الأخيرة. فتذكرت حينها الأستاذ محمد عمارة، رئيس جامعة بو الفرنسية سابقا، وأحد أعضاء أول فريق عمل، أنه قال لي من قبل: إن نجاح المدرسة مرهون بنجاح السنة الأولى!

السؤال 7. هل ترون أن لهذه المدرسة مستقبلا زاهرا، وأنها ستكوّن نخبة من الشباب سيجدون مكانا يليق بمكانتهم في سوق العمل بعد التخرج؟ أو هل سيكون مصيرهم مثل مصير الكثير من شبابنا الذين هجروا البلاد؟

محمد السعيد مولاي: لا تعليق لي على سؤالكم هذا للأسباب التي ذكرتها من قبل، وإنما نتفاءل خيرا وأتمنى أن تُستدرك الأمور نحو الأفضل والأحسن حتى لا تضيع النخبة من خيرة أبنائنا وبناتنا أو تهاجر بلا رجعة في أرض الله الواسعة، ولكي لا نخطئ الطريق نحو السيادة والريادة في التقدم العلمي والتكنولوجي إلى أبعد الحدود

السؤال 8. كيف ترون واجب الدولة نحو هؤلاء الشباب لجلبهم نحو القطاعات الحكومية والخاصة؟

محمد السعيد مولاي: إن إطلاق المشاريع مثل مشروع المدرستين لَيُعدّ من الأهمية بمكان، وذلك لرفع التحديات الكبرى التي تواجه البلاد والعباد والأجيال المتصاعدة من فلذات أكبادنا. ولكن لا بد من متابعة هذه المشاريع عن قرب لأهميتها، والمراقبة الصارمة لتسييرها، والحرص على تقديم الكفاءات من أهل الرؤى والنهى وبعد النظر، ومد جسور التواصل مع المخلصين من أبناء وبنات الجزائر سواء كانوا في الداخل أو الخارج.

السؤال 9. أنتم درّستم في الخارج وعدتم إلى البلاد، وزرتم كثيرا من الجامعات واحتككتم بعديد الجامعيين من مختلف الجنسيات كما أسلفتم. هل لكم رأي في مناهج الرياضيات في المدرسة والجامعة الجزائرية مقارنة بما اطلعتم عليه خارج البلاد؟ وكيف تقيّمون دسامة المنشورات البحثية الجزائرية ضمن المجلات الأجنبية في مجال الرياضيات؟

محمد السعيد مولاي: باختصار شديد يجب إعداد المحاور الكبرى، الآنية والمستقبلية، التي تدور حولها عجلة البحوث على اختلاف أنواعها ومجالاتها، وإعداد المناهج الصالحة لتحقيقها بالتشاور مع أهل الخبرة، ومنهم على وجه الخصوص الأساتذة المهمشون، مع الاستعانة بتجارب الدول المتقدمة.

وإلى جانب هذا ينبغي في مجال الرياضيات أن نغيّر من أساليب التدريس الرتيبة، ليس بتلك المنفرة ولكن بالطرق الجذابة. ولا بد كذلك بربط الرياضيات بمنافعها المتعددة لبيان قدرتها على استيعاب المشكلات وحلها ولفتح أبواب الشغل أمام الدارسين، وإلا ستظل مهجورة كما هو حالها وبتهميشها سنمشي القهقرى لا محالة.

السؤال 10. نترك لكم اختيار موضوعه والإجابة عنه.

محمد السعيد مولاي: ما دمت قد منحتني الاختيار، فإن سؤالي بسيط وخطير. وهو أننا كثيرا ما نُلام ونسمع قولهم: "نحن أمة اقرأ لا تقرأ"، أليس كذلك؟ والسؤال: أصحيح هذا أم باطل؟

ما دمنا في مجال الرياضيات، دعنا نذكر كمقدمة للمسألة، بالمنهج الأساسي الذي تقوم عليه هذه العلوم. فهي توصف، أي علوم الرياضيات، بأنها فرضية-استنباطية (hypothetico-deductives)، بمعنى أن المنهج الذي تعتمد عليه ينطلق من فرضيات أو مسلمات ويتوسع بطرق استنباطية، وهو منهج تحليلي من الكليات (المسلمات) إلى الجزئيات (النتائج المستنبطة من المقدمات)، ويتسم بالصرامة القصوى فلا لبس فيها ولا عليها غبار. وكما نعلم اتُّهم هذا المنهج بالعقم لأنه في زعمهم لا يأتي بالجديد لكون الجزئيات ضمن الكليات.

"... فبرز بقوة المنهج التجريبي في مقابل المنهج الرياضياتي..."

والجدال التاريخي معروف بين العلماء والفلاسفة في هذا الشأن، ليس المجال هنا لتفصيلها. فبرز بقوة المنهج التجريبي في مقابل المنهج الرياضياتي، وهو في الواقع منهج استقرائي معاكس تماما له وينطلق من الجزئيات (العينات الجزئية ومختلف التجارب المحدودة) إلى الكليات (القوانين الجامعة والنظريات العلمية وما سواها).

والآن، بعد هذا التذكير الموجز، لنعد إلى مسألة "أمة اقرأ التي لا تقرأ".

الشطر الأول من هذه العبارة إنما يشير إلى أول آية نزلت في القرآن الكريم، وهي "اقرأ باسم ربك الذي خلق". فنحن فعلا أمة القراءة على الإطلاق، وهي باسم الله، المصدر الأول الذي انطلقت منه الكائنات بكل أنواعها وتفاصيلها؛ فهي إذن قراءة "من الكليات إلى الجزئيات" على طريقة المناهج الاستنباطية.

وأما الشطر الثاني، فهو يشير إلى القراءة المنسية والتي ذُكرت في الآيات الموالية للأولى: "اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم". وهذه قراءة بالقلم للنهل من العلوم في المدارس من أدناها (كالمدارس التحضيرية والابتدائية وما سواها) إلى أعلاها (كالمدارس الوطنية العليا للرياضيات والذكاء الاصطناعي، وغيرهما) وفي كل عصر (من القرون الأولى إلى العصور الحديثة وما بعدها) ومَصر (طلب العلم فريضة "ولو في الصين"، أي مهما بعدت المسافات في الأرض). وعلى هذا النمط تُستنتج العلوم من القراءة في كتاب الكون كما عبر عن ذلك أبو المنطق العقلاني روني ديكارت في كتابه الشهير "المقالة في الطريقة".

والخلاصة أن القراءة قراءتان، إحداهما استنباطية والأخرى استقرائية، ولا بد منهما معا، وإلا اختل الميزان وكان الخسران. ولنا في الغرب المعاصر عبرة لمن يعتبر، إذ أقبل على القراءة بالقلم في كتاب الكون وأسس لذلك المدارس الكبرى، فتقدم في مختلف العلوم الكونية وازدهر في ابتكار أرقى التكنولوجيات وأحدثها، وانبهر به العالم بأسره. لكنه من ناحية أخرى أهمل وتجاهل القراءة الأولى بل حاربها ودسها في التراب وهو الآن يئن تحت وطأة أنواع من الفساد الأخلاقي وعلى خطى أولئك الذين ارتكبوا الفواحش ما سبقهم بها أحد من العالمين.

كما لنا في المشرق الكبير درس لا ينسى، ولعله يكون حافزا للأجيال الصاعدة. ذلك أن رواسب عصور الانحطاط والحملات الاستعمارية المتكررة، دفعت شعوب المنطقة إلى التحصن بكتاب الله وعلومه، وكان لهم في ذلك سياج منيع. غير أنهم تخلفوا كثيرا عن القراءة بالقلم في كتاب الكون فاختلت لديهم الموازين، لأن سنن الله ثابتة لا تتغير وماضية في عباد الله أجمعين. وهم الآن يستيقظون ويستثمرون في التعليم مع الجودة وفي البحوث الناجعة، ونأمل أن يكون ذلك بالقراءة الصحيحة، وهي القراءة المتوازنة في الكتابين معا، المسطور والمنظور.

خلال حفل تكريمه، محمد السعيد مولاي (الوسط) صحبة يوسف منطلشطة (اليمين)، سليمان مولاي (شقيقه، واقفًا)، رشيدة بوجرادة الأستاذة المشرفة على الحفل (10 جويلية 2023، باب الزوار).